

صور من العصر العباسي :

الخلفاء العباسيون والتجسس

للامتاذ صلاح الدين المنجد

— ١ —

شُغف الخلفاء العباسيون بالتجسس ومالوا إليه . وقد كان لا بد لهم من تسطُّط الأخبار والحفول بها لئلا ينسبوا إلى الضعف والنفلة أو يجترى عليهم الأعداء والأخصام . فإن من أخلاق الملك اليقظ السعي على قول الجاحظ : البحث عن سرائر خاصته وعامته ، وإذكاء العيون عليهم ، والبحث عن كل خفي دقيق^(١) .

وبنداد ، وما كان فيها من أخلاط الخلوقات وأغاط الناس ، وما انتشر فيها من آراء سياسية وعصبية ، وما ظهر فيها من ميول شمولية وعلوية وهاشمية كل هذا دفع الخلفاء إلى التجسس ولم^٢ الأخبار ليحفظوا ملكهم ويكونوا على بينة مما يجري .

وقد ذكرنا أن الرسول عليه السلام ، كان ، ليقظته يرسل الجواسيس والميون يتحسسون أخبار أعدائه المشركين . ولم يكن عصر النبي عليه الصلوات ، كالعصر العباسي ، ولا كان المجتمع إذ ذاك ، كالمجتمع يومئذ . فليس من الغريب أن يشغف العباسيون بالتجسس ، فهو ضرورة من ضرورات الملك .

كان التجسس يجري على طريقتين : ظاهرة وخفية . أما التجسس علانية فكان يقوم به أصحاب الأخبار والبريد . وكانوا منتشرين في كل مكان ، وكان عليهم أن يعرفوا حال عمال الخراج والضياح ، وأن يتنبهوا ذلك تنبهاً شافياً ، ويستشفوه استشفافاً بليغاً ، وأن ينهوه على حقه وصدقته . وأن يعرفوا حال عمارة البلاد ، وما هي عليه من الكمال والاختلال ، وما يجري في أمور الرعية فيما يُسلمون به من الانصاف والجور ، والرفق والظلم ، فيكتبوا به مشروحاً . وأن يعرفوا ما عليه الحكام في حكمهم وسيرم وسائر مفاهيم وطرائقهم ، وأن يعرفوا حال

دار الضرب وما يُضرب فيها من العين والورق ، وما يلزمه الموردون من الكاف والمؤن . وفي كل ما ينهونه . ينبغي أن يكونوا صادقين واثقين مما يُنهون . فإذا ورد كل ذلك على الحضرة سُمِّ إلى صاحب ديوان الانشاء ليحمله إلى حيث يطلع عليه الخليفة ويأمر بما يرى ، ثم يكتب للأفاق بما ينبغي^(١) .

فهؤلاء كانوا جواسيس رسميين ، أما الجواسيس الذين لا يظهرون أنفسهم ، ولا يعرفهم أحد ، فكانوا أنواعاً متنوعة ، تفنن الخلفاء في استخدامهم . وكان فيهم « الطفل والرأه والمحتاج والزمن وابن السبيل ... »^(٢) .

وأول من عُني بالتجسس الخفي من الخلفاء : أبو جعفر المنصور « فقد كان يشتري رقيقاً من الرقيق ، ثم يمطي الرجل منهم البعير ، والرجل البعيرين ، فيهمون ، أو يردون الماء كاللارين وكالضالين فيتجسسون ... »^(٣) .

وبحدثنا الطبري أن أبا جعفر أتى سرية بأحد جنده فقال له : « اخف شخصك واستر أمرك واتقني في يوم كذا في وقت كذا . فأتاه ، فقال له إن بني عمنا هؤلاء قد أبوا إلا كيداً لملكنا واغتيالاً له ، ولهم شيمة بخراسان بقرية كذا يكاتبونهم ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم والطفان من الطاف بلادهم . فأخرج بكسي والطفان وعين حتى تأتيهم متنكراً بكتاب عن أهل هذه القرية ، ثم تسبر ناحيتهم . فإن كانوا قد نزعوا من رأيهم فأحجب^٤ والله بهم وأقرب . وإن كانوا على رأيهم علمت ذلك وكنت على حذر . فاشخص حتى تلقى عبد الله بن حسين متشفاً متخشماً ، فإن جهلك وهو فاعل ، فاصبر وطاوده . فإن عاد فاصبر حتى يأنس بك ، وتلين لك ناحيته ، فإن ظهر لك ما في قلبه فاعجل على ... » فشخص الرجل حتى قدم على عبد الله فلقية بالكتاب فأنكره ، ونهره . وقال ما أعرف هؤلاء القوم . فلم يزل يتصرف ويصود حتى قبل كتابه والطاقه ، وأنس به . فسأله الجواب . فقال : أما الكتاب فإني لا أكتب لأحد ، ولكن أنت كتابي إليهم ، فأقرهم السلام ، وأخبرهم أن ابني

(١) كتاب الخراج لعمامة (ديقوة) ص ٢٨ — ٣٢ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥ ، ٧٨٦

(٢) كتاب بنداد لطيفور .

(٣) الطبري حوادث سنة ١٤٤ .

(٤) التاج في أخلاق الملوك ص ١٦٧ .

صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية . ثم عرض المنصور على
إصبعه السبابة ثلاث مررات وهو يقول في كل مرة : آه ، آه !
قيل ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء
على الصخرة^(١) .

وكان الرشيد من أشد الملوك بحثاً عن أسرار رعيته ،
وأكثرهم بها عناية وأحزمهم فيها أمراً^(٢) . وكان يتمسك أخبار
المهادى قبل أن يصبح هو خليفة ؛ فقد كان مسرور الكبير في
خدمة المهدي ، وكان الرشيد حفيماً به عسناً إليه . فلما انتقل
أمر الخلافة إلى المهادى قال له الرشيد : أئني قوياً الشراسة ،
وأنا أخاف إيقاعه بي ، وجمع الناس على بيعة ابنه بعده . وأنا على
غاية الثقة بك فاعدل إليه ، وكن له عيناً عليه . فتقدم مسرور
عند المهادى حتى تولى ستر بيت خلوته . فكان يُنهي إلى الرشيد
كل كلمة من كلماته ، وفعل...^(٣)

وكتب الأدب والتاريخ متعة بأخبار تتبعه أسرار رعيته
حتى كان ذلك يدفعه إلى إخفاء شخصه ، والطواف مع جعفر
ابن يحيى في الأسواق وبين الأحياء ، ليمسك الأخبار ، ويعرف
ما يدور بين الناس من الأحاديث ويستطلع ما لا يصل إليه خبره^(٤) .
ولم يقنع بأسرار رعيته ، بل وكل عيوناً على ولديه . فكان
مسرور الخادم رقيب المأمون ، وكان جبرائيل بن بختيشوع
رقيب الأمين^(٥) .

وعلى نحو هذا كان المأمون في أيامه . ذكر أبو الفرج أنه
لما تولى الخلافة وأتى بغداد ، كان يتجسس على إبراهيم بن المهدي
فألزمه رجلاً ينقل إليه كل ما يسمعه من لفظه جداً أو هزلاً^(٦) .
ويسوق الجاحظ دليلاً على تتبع المأمون أسرار رعيته رسالته
إلى إسحق بن إبراهيم في الفقهاء وأصحاب الحديث وهو بالشام ،

(١) التمدن الاسلامي ج ١ ص ٢٢١ .

(٢) التاج ص ١٧٠ .

(٣) السكافة وحسن التقى (تحقيق عمود عبد شاكر) ص ٦٣ .

(٤) الأغانى مثلاً ج ٦ ص ١٣٢ .

(٥) الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ٨٣ .

(٦) الأغانى ج ٣٠ ص ٨٢ .

خارجاً لوقت كذا وكذا فعاد الجاسوس إلى أبي جعفر وأخبره^(٧) .
وحدث صاحب عذاب أبي جعفر قال : دعاني أبو جعفر
ذات يوم ، وإذا بين يديه جارية صفراء ، وقد دعا لها بأنواع
العذاب ، وهو يقول لها : ويلك أصدقيني ، فوالله ما أريد
إلا الإلانة ، ولئن صدقتني لأصِلنَّ الرحم ، ولأتابمن البرِّ إليه .
وإذا هو يسألها عن محمد بن عبد الله ، وهي تقول : ما أعرف
مكانه . ودعا بالدهق وأمر به فوضعه عليها . فلما كادت نفسها
أن تلف قال : أسكوا عنها ، وكره ما رأى . وقال لأصحاب
العذاب : ما دواء مثلها إذا صار إلى مثل حالها ؟ قالوا : الطيب
تشمه ، والماء البارد يصب على وجهها ، وتسق السويق . فأمر
لها بذلك ، وعالج بعضه بيده ، حتى أفادت ، وأعاد عليها المسألة ،
فأبى إلا الجحود . فقال لها : أتعرفين فلانة الحجامة ؟ فاسود
وجهها وتغيرت . فقالت نعم يا أمير المؤمنين ، تلك في بني سليم .
قال : صدقت ، هي والله أمي ، ابتعتها بمال ، وورق يجري
عليها في كل شهر أمرتها أن تدخل منازلكم ، وتجمعكم ،
وتعرف أخباركم . أو تعرفين فلانة البقال ؟ قالت نعم ، هو في
بني فلان . قال : هو والله مضارب بخمسة دنانير أمرته أن
يبتاع بها كل ما يحتاج إليه من البيوع . فأخبرني أن أمة لكم
في يوم كذا من شهر كذا ، صلاة المغرب ؛ جاءت تسأله حناء
وورقاً ، فقال لها : ماتصمين بها ؟ فقالت : كان محمد بن عبد الله
في بعض ضياعه بتاحية البقيع ، وهو يدخل الليلة ، فأردنا هذا
لتتخذ منه النساء ما يحتجن إليه عند دخول أزواجهن من المغيب .
(قال) : فأقط في يدها ، وأذعنت بكل ما أرا^(٨) .

وهذه القصة والتي قبلها نبيتان لنا كيف سخّر أبو جعفر
أحد جنده ، وأمه ، ويقالاً مضارباً له ، للتجسس وجمع الأخبار
ولملك تعلم حبه تتبع الأسرار مما ساقصه عليك . قالوا :
إن أبا جعفر قال ذات يوم لأصحابه : ما أخرجني أن يكون على
باب أربعة نفر لا يكون أحف منهم ، وهم أركان الدولة ، ولا يصلح
الملك إلا بهم . أما أحدهم ففاض لا تأخذه في الله لومة لأثم ،
والآخر صاحب شرطة ينصف الضميف من القوى ، والثالث

(١) الطبري حوادث سنة ١٤٤ .

(٢) المحاسن والساوي للبيهقي ص ١٦٠ (طبعة أوروبا) .

فأقام بها أربعة وعشرين شهراً ، فوجهنا من يتبع أمواله ، فأخبرنا أن في منزله خدماً وخصياناً بقيمة ألف وخمسة دنانير سوى نتاج قد آخذ^(١) .

وحدث إبراهيم بن السندي أنه جالس المأمون ومعه إبراهيم ابن المهدي فطلق المأمون يحدث عن أهل عسكره ، حتى والله لو أن رجلاً أقام في رحل كل رجل من الجنود حولاً ، لما زاد على معرفته لشدة تنقيبه وتنبهه أخيار الناس^(٢) .

فهذه الحوادث التي سردناها ، تدل على حبه التجسس ، ودسّ الناس ليتسقطوا له الأخبار ، ويطلعوه على ما يشاء .

صريح الربيع المنجبر

(له بقية)

(١) المحاسن والناويء ص ١٦٣ .

(٢) تاريخ بغداد لظيفور ص ١٠٠ .

مطبوعة الرسالة

تقدم قريباً

الطبعة الثانية من كتاب :

في أصول الدين

مخاضات ومقالات في الدين العربي

للاستاذ

أحمد الزيات

وقد أضيفت إليه فصول لم تنشر

التي خبر فيها عن عيب واحد واحد ، وعن حالته وأموره التي خفيت ، أو أكثرها ، عن القريب والبعيد^(١) .

وقد ذكر صاحب محاضرات الأوائيل أنه كان للمأمون ألف عجز وسبعماية ، بتفقد بين أحوال الناس من الأشقياء ومن يحبه ويبغضه ، ومن يفسد حرَم الملمين . وكان لا يجلس إلى دار الخلافة حتى تأتيه أخبارهن وأنه كان يدور ليلاً ونهاراً مستتراً . وقد يكون هذا الخبر صحيحاً فيما يتعلق بإرسال العجائز ، أما عددهن وأنه كان لا يجلس إلى دار الخلافة حتى تأتيه أخبارهن ففيه مبالغة .

وكان المأمون يُعنى بمعرفة أحوال عمّاله . فكان يفحص عنهم ، وعن دفين أسرار حكماء خصماً شافياً ؛ فلا يخفى عليه ما يفيد كل امرئ وما يتفق ، وكان من نأى عنه كمن دنا منه ، في بحثه وتنقيبه ، وكان يتبع أحوال القضاة والولاة والجنود^(٢) .

فذكروا أنه سأل يوماً جماعة : من أنبل من تملون نبلاً وأعفهم عفة ؟ فذكر كل من يراه . فقال : لا ، ذلك عبد الله بن طاهر دخل مضر كالمرس الكاملة : فيها خراجها ، وبها أموالها جمة ثم خرج عنها ، فلو شاء أن يخرج عنها بمشرة آلاف دينار لقل ؛ وقد كان لي عليه عين ترعاه ، فكُتِبَ إليّ أنه عُرضت عليه أموال لو عُرضت عليّ لشهرت إليها نفسي ، ولقد خرج عن ذلك البلد وهو بالصفة التي قدمه فيها ، إلا مائة ثوب وحمارين وأربعة أفراس^(٣) .

وحدث بشر بن الوليد قال : كنتُ عند المأمون ، فقال : ولينا رجلاً قضاء الأبلّة ، وأجرينا عليه في الشهر ألف درهم ، وما له صناعة ولا تجارة ولا مال قبل ولا بيتاً ابتناه ، وولينا رجلاً آخر قضاء دمشق وأجرينا عليه ألف درهم أشار به عليّ محمد بن سحامة ، فأقام بها أربعة عشر شهراً فوجهنا من يتبع أمواله في السر والملاية ، ويشترّف حاله ، فأخبر أنه وجد ما ظهر من ماله في هذا القدار من دابة وغلّام وجارية وفرش وأثاث قيمته ثلاثة آلاف دينار . وولينا رجلاً أشار به فلان مهاوند

(١) التاج : ص ١٧٠ .

(٢) المحاسن والناويء ص ١٦٤ .

(٣) المصدر السابق ص ١٦٢ .